الرقة

بقلم المطران جورج خضر

لا يسوغ التعريف عن فضيلة الا بالاقتراب من أصحابها• وهذا يصح بالدرجة الاولى على الوداعة لأنها ليست من الأرض الفاجرة المليئة منذ قايين بروح العنف وإقصاء الآخر• القاعدة ان سواي الذي ينافسني يجب ان يموت• ولكن الموت هو الوسيلة القصوى التي دونها مخاطر كثيرة وعدم ألفة مع الدم وخشية الثأر في المجتمعات القديمة او السجن او الإعدام• القتل يحتاج الى حيوانية كبيرة لطفها المجتمع والى تفعيل للبغض قلما نملك ثمنه• غير ان الفظاظة اذا لم تصل بنا الى الذبح نعيشها في القلب على الكثافة نفسها فاذا بنا قتلة بلا سلاح•

القاعدة التاريخية ان القبيلة الأخرى ليس لها كيان لأنها ليست قبيلتي• انها مرشحة للإبسال، للقطع من ارض الأحياء• ليس المهم ان أبيدها ولكن المهم ان أصرف وجهي عنها فتموت لأن وجهي هو المعطي الحياة• الإرهاب ما هو الا تفعيل للرفض القائمة عليه الجماعة ولو ادعت الموآنسة• كل جماعة مهما عظم إيمانها تغريها القبلية وتخلط بين عزتها وعزة الحقيقة وتُضخم اخطاء الغير وتقبح مواقفه وتجمل موقعها وما قالت وما كتبت وتسخر الفلسفة والعلم وتزور التاريخ لإعلاء شأنها ولا تعتذر عن قباحة الا اذا علّت الله على جمعها وتحسب التجمع قوة وتجعل نفسها ضحية ليقوى عنفها• كل ذلك لأن قايين يقتل هابيل من البداءة الى المنتهى ليمتلك الأرض•

وكلما ضعفت الجماعة وتقوقعت تتربص الدهور لتتاح لها فرصة الانتقام• وتتغذى من بغضائها جيلا بعد جيل وتعلم ناسها الحرب عن طريق الخدعة والتمول والعلم تستقوي بها جميعا ليس حبا بالبقاء الخير وطيب العطاء ولكن لتتعزى بدونية الغير فتنتفخ على قلتها احتسابا لسيطرة تجيئها حتى اذا جاءت تستكبر وتلغي الآخرين من الفكر• فاذا ظنت نفسها كبش محرقة تبكي وتستعطف لتربح دنيويا من شفقة الغير فتعود عليه مذلة له بالفكر لتعذّر إذلاله بالفعل التاريخي•

وما صح في العشائر يصح في الفرد فإن كل امرئ قبيلة وعائلته قبيلة وفرع العائلة هو ايضا كذلك• شحنة بغض او ازدراء او سخرية او خصومة مبينة فاذا بالآخرين اجساد بلا معنى لا كيانات انسانية حلوة• ذلك ان الشراكة البشرية مأثرة نادرة لا يؤتاها الناس الا من ربهم• فالله وحده مبيد للقبائل وهو وحده ممیت للفردية الفظة لأنا به وحده ندرك التواصل فاذا نحن في سر الحب الذي هو حضرة الله فينا• كل مجتمع منغلق حتى يخترقه الله بالكلمة• وكل فرد منغلق حتى يتخذه ربه بالرحمانية الواسعة• ناس من تراب وناس من ضياء وليس بينهما جامع• فالمجتمع الإلهي ليس منظورا• ربه يعرفه في اختياره اياه• وهو قائم في عينيه• وهذا هو ملكوت الله•

***

من الملكوتيين الكبار الودعاء• هذا معنى قوله في الكتاب: "انهم يرثون الأرض"• ان انجذاب الله الى الودعاء نراه في المزامير وغيره من أسفار العهد القديم• الرب "يزين الودعاء بخلاصه" (مزمور ٤:٩٤١)•

ان سياق النصوص يجعل كلمة ودعاء مرادفة لكلمة متواضعين او وضعاء بالترجمة اليسوعية الأخيرة• ولعل ذلك كان حاضرا في ذهن السيد لما قال: "تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب" بحيث ان الوديع كان بالضرورة متواضعا والمتواضع وديعا• غير ان الوداعة مفهوم اقرب الى اللطف• وفي هذا يقول بولس: "اما ثمر الروح فهو المحبة والفرح والسلام والصبر واللطف" (غلاطية ٥:٢٢) الى آخر الكلام• واللافت في القرآن ان اللطف صفة من صفات الله• وتصير هذه عند بولس صفة للإنسان ولكنه يستمدها من ربه• واللطف يقال له عند العرب ايضا الرقة وهي من اجمل الخصال لكونها اولا اجتنابا لكل ما يجرح الآخر وهي ثانيا انعطاف عليه بحيث لا يبقى نتؤ بينك وبين الآخر اذ تتخذه في نفسك مهما كانت ذنوبه وترحمه ولا تدين فاذا ارتاح اليك يستريح في الرب•

ولكن كل فضيلة ممكن تشويهها لاختلاطها بسيئة• فقد يخامر الرقة التميع اذا تركت الآخر على ما فيه من ضعف ولم تحاول إصلاحه• اذ خوف اللطيف الا يصدم الآخر خشية تنفيره وخشية القسوة في من لطف• والقسوة ظلم يخرج به من تعامله عن طوره لإحساسه بأنه اضطُهد او قُمع• فكيف ترق ولا تميع؟ الجواب في ان الرقة اصلا لا تنافي القوة• والفضيلة في ان تجتمعا لأن الرقة والقوة واحد في الله•

عن المسيح قيل: "لن يخاصم ولن يصيح ولن يسمع احد صوته في الساحات• القصبة المرضوضة لن يكسرها والفتيلة المدخنة لن يطفئها" (متى ١٢:١٩و٢٠)• لا يخاصم الإنسان اللطيف بمعنى انه لا يعادي ولكنه يختلف مع الآخرين في الرأي او الموقف وهو في ذلك صريح ولكنه يفرق بين الرأي وصاحبه فاذا رفض الاول لا يرفض قلبه الثاني• المحب لا يكون انفعاليا ولا يقيم على الآخر خطيئته• الذي يلطف حتى النهاية لا يصرخ لأن الصراخ تحمله شحنة كره• المحب يعالج المصاب بخطيئة• وهذا يتطلب رحمة واسعة• واذا ارتفع الصوت ازاء الخاطئ لا يهدأ ويرى انه هو مكروه• العاصي يعصى ربه وانت، طبيبا من عند الله، تلبس اللطف الإلهي لإصلاح من وجب إصلاحه• انت لست بمؤدب• "فذكّر انما انت مذكر• لست عليهم بمسيطر" (سورة الغاشية، الآية ١٢)•

لا يصيح اللطيف ولا يسمع احد صوته في الشوارع وحديثه اشبه بالهمس• وقد علمنا باسيليوس الكبير انك تعطي صوتك الحجم الضروري لإسماعه مخاطبك وما عدا ذلك صراخ• انت تقدم فكرك تقديما وتحاول الحجة التي يبيحها المنطق•

جميل قول متى عن السيد: "القصبة المرضوضة لن يكسرها"• والصورة ان ولدا قد يمر بسياج يؤلفه القصب ويحلو له ان يضرب قصبة فترض• فاذا مر آخر قد يرغب في ان يجهز عليها• هنا يريدنا الإنجيل الا "نكسر" رأس احد في مشاحنة والا نشتمه والا نستكبر عليه وان نعلي شأنه ايا من كان وان نحترم اضعف مخلوق مثلما نحترم الأعظم لأن كرامة الله واحدة في الجميع أخطأوا ام لم يخطئوا، أحاطونا بعاطفتهم ام حاربونا او تجاهلونا•

***

اذكر لقاء بين غاندي وبعض اتباعه قالوا فيه ما مفاده: ان هذا النبي تحبه يسوع الناصري استعمل العنف (وكانوا يشيرون الى طرد يسوع التجار من الهيكل) فلماذا لا تبيح لنا العنف؟ اجابهم: اذا كنتم قادرين على وداعة يسوع لما فعل هذا فإني ابيح لكم العنف• الفكرة ان العنف، جسديا كان ام في الكلام ام في التعامل، يسيء اولا الى صاحبه قبل ان يسيء الى الآخر• وهذا هو السبب الرئيس الذي يجعلني اكره كل ثورة تقوم على الدم اذ لا تستطيع انت ان تقتل في اي ظرف ما لم تقتل نفسك روحيا•

ما اراده الناصري في قوله: "لا تقاوموا الشرير" هو انك لا ترد اذى يلحق بك بأذى تلحقه انت بالآخر ولا ترد ضربة بضربة مادية كانت ام معنوية• لأنك ان فعلت يستفحل الآخر في غيه ولا تشفيه• وانت امام الشر الذي يريده احد لك مجرد طبيب معالج• المؤمن ليس عنده ردة فعل على احد او في جدال• عنده الفعل فقط• وفي هذا المنطق لا عجب في قول السيد: "احبوا اعداءكم وصلوا من اجل نضطهديكم" اذ انت اولا حساس لكون من عاداك لا يريد خلاص نفسه اولا وانت منشغل بخلاصه وليس بما اصابك منه• المسيح لم يقل انه ينبغي عليك الا تأسف لما حصل او لا تصدم او لا تجرح ولكنه قال: انك مدعو ان تتجاوز كبرياءك حتى يحيا الآخر بهذا التجاوز ويعود الى السلام• انت لست قاضيا على احد واذا اهانوك وانتقمت فمعنى ذلك انك طرف وقاضٍ معا•

من هنا انك لا تستطيع ان تستقيم داخليا وان تنقي الآخرين الا بالرقة، هذه التي تصفح عن كل شيء وتصبر وتخدم "ولا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ في الكبرياء... ولا تسعى الى منفعتها... وتتحمل كل شيء"•

من الرقة ينشأ الكون الجديد الذي الله وحده ربه اذا كان رب القلوب"•